الجمال كما يجب أن نراه

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

لكل منا نظرة خاصة للجمال ، مبعثها فيه قوة الشعور ورقة العاطفة . فهذا مثلا يعشق الورود اليانعة لإشراقها وبهائها ، وذاك يعشق الزهور الذابلة لرقتها وضعفها ، وآخر يعجب بالمرأة لفتنة وجهها وجمال تقاطيعها ، وغيره يرى جمالها فى قوة شخصيتها ومكارم أخلاقها ، وغير هذا وذاك كثير وكثير . . . فلكل منا منظار خاص للجمال ، وميزان خاص يزنه به حسب تربيته وميوله وثقافته . . . أى أنه على قدر تهذيب الإنسان واتجاه ميوله وأحاسيسه تكون نظرته للأشياء .

ومن هذا يتضح لنا أثر الجمال الحسى فى اختلاف صور المرئيات . والجمال الحسى هو الشعور بالجمال المطلق الذى يخلق فى نفوسنا دقة التمييز ، وقوة الملاحظة ، وينمى فى قلوبنا الميل إلى الكمال فى كل ما يقع عليه ناظرنا .

ومع اختلاف نظراتنا للجمال فلا يمكن لأحدنا أن يعجب بالقبح على أنه جمال ؛ إلا إذا كان فاقد الذوق ، عديم التمييز .

وللبيئة كل الأثر فى تربية الشعور . فإذا كان الانسان قد شب فى بيئة مشوشة ، مليئة بالشجار وعدم النظام ، نشأ مجردا من ملكة الذوق التى تبعث فى نفسه ملكة التمييز بين الجمال الصحيح والجمال الزائف . فتراه دائما شاذا فى أقواله ، متخبطا فى أفعاله ، متنافر الشعور فى اختياره للأشياء ، لأن شعوره قد تربى فى بيئة بعيدة فى محيطها عن الجمال الكامل .

أما إذا كان قد تربى فى بيئة هادئة جميلة ، بين أبوين مثقفين كاملين . . تشبع من أخلاقهما ونشأ على غرارهما ، وشب هادئ الطبع ، رقيق الحس ، كاملا فى نظرته للأشياء ، لا يمكن أن يخطئ بين النقص والكمال .

وهناك مظاهر شتى يمكننا بها أن نحكم على أخلاق الشخص ونوع تربيته وميوله . فبحديثه يمكننا أن ندرك إذا كان مهذبا أو متكلفا التهذيب ، ومن مخارج ألفاظه نعرف إن كان هادئ الطبع أو عصبى المزاج وبمشيته نستطيع أن نحكم عما إذا كان فاضلا محتشما ، أم متبذلا عديم النظام فإذا لم يقدر لنا أن نسمعه متحدثا أو نراه سائرا ، أمكننا ان نكتفى بنظرة شاملة لمظهره الخارجى للحكم عليه .

ألقيت هذه الكلمة من محطة الإذاعة اللاسلكية فى شهر أبريل الماضى .

والملابس هى أهم المظاهر الخارجية حكما على ميول كل إنسان ونوع نزعاته فمثلا كثيرا ماترى فتاة جميلة الوجه ، متناسبة التقاطيع ، لكنها فاقدة الشخصية لا تكاد تشعر بوجودها بيننا إذا جمعنا بها مجلس ، على حين نرى أخرى عادية الملامح ، لكنها آخاذة المنظر ، قوية الشخصية ، فتنتزع الاعجاب ممن حولها انتزاعا . وإذا بحثنا عن السبب فى ذلك ، وجدنا أنه لاختيار الملابس وانسجامها كل الأثر فى هذا التباين العجيب ، ولحكمنا بأن الفتاة الأولى فاسدة الذوق رغم جمالها ، قد انعدمت فى نفسها ملكة التمييز فلم تفرق بين مايصلح لها ومالايصلح . وكان هذا النقص فيها سببا فى طمس معالم جمالها وأن الثانية قد نشأت دون شك فى محيط هادئ مرتب ، فتشبعت منه بالذوق الفنى وحب النظام .

هذا ولحب التقليد عندنا ، دون التفريق بين ما يلائمنا ومالا يلائمنا أضرار كثيرة ، غالبا ما تكون سببا فى سقوط مركزنا الأدبى بين الناس . فنحن فضلا عن تقليدنا لكل غريب شاذ نراه أو نسمع به ، حتى وإن كان بعيدا عن أية صفة من صفات الجمال والكمال ، لا نتورع من أن نتخبط خبط عشواء فى انتقاء ملابسنا حتى وإن كانت بعيدة عن الملاءمة والانسجام .

فهذه خمرية اللون وترتدى ما تلبسه البيضاء ، وتلك قصيرة القامة قد لبست نفس زى الطويلة ، والأخرى بدينة قد وضعت فى أكتاف ملابسها حشوا لإتساع عرض كتفيها كما تفعل أختها النحيلة فبدت ككيس كبير محشو بالرمل . وناهيك بما تلجأ إليه بعض عجائزنا من الظهور بملابس تلميذات المدارس التى تفقدهن الإجلال والإحترام ، أو عمدهن إلى اختيار الألوان الزاهية الصاخبة ، التى تبدون بها أشبه بالببغاوات ، هذا عدا ما يلطخن به وجوههن الهزيلة من مختلف المساحيق والأصباغ .

كل هذا يدل على نقص كبير فى مستوى الشعور الحسى عند هؤلاء أفقدهن قوة التمييز بين ما يلائمهن وما لا يلائمهن . ومما يؤيد هذا النقص ، مثل بسيط حدث أمامى يوما وأنا فى الترام .

كان هذا حين صعدت إلى الترام عجوز مسنة ، قد فارقت السبعين ، تلبس ملابس صاخبة ثائرة لا أعرف بالضبط عدد ألوانها ، قد لطخت سحنتها بمختلف المساحيق فى إسراف مخجل ، وعقدت حول رأسها (إيشارب) زاهيا متنافر الأشكال . أما ساقاها الأعجفان فكانا دون جورب يخفى قبحهما الظاهر . ولم تنس أن تحلى صدرها بباقة صغيرة من زهور البازلاء الملونة ، فبدت فى جملتها مثلا شائنا للشيخوخة المبتذلة ، حتى كان ذلك داعيا لانتزاع أقوال السخرية من أفواه الركاب ، وتبادل النكات بين هذا وذاك ، والمرأة جالسة تنظر إليهم جميعا باشمئزاز ، وكأنها لا تشعر بما فعلت بشيخوختها من المسخ والتشويه ، فكان ذلك داعيا لخجل معظم السيدات وخصوصا العجائز منهن .

ومما لا شك فيه أن تلك المتصابية وأمثالها قد فقدت كل شعور بالجمال الحسى فقدانا انعدم معه فى نفسها كل أثر لدقة الملاحظة وقوة التمييز ، فصارت أشبه بحيوان أحمق عجوز .

وهذا مع الأسف ليس فى طائفة النساء فحسب ، فهناك رجال قد فاقوا بأمزجتهم المتنافرة اشباههم من النساء، واذا استعرضنا ما نصادفه فى الطريق من مناظر مؤذية لرأينا عجبا . فمن قزم قد ارتدى السترة الطويلة تشبها بأبطال الروايات الأمريكية فبدا غارقا فيها حتى لا يكاد الناظر إليه أن يفرق عما إذا كان ما يلبسه سترة أم معطفا ، عدا ما يبعثه مظهره المضحك فى النفوس من سخرية واشمئزاز . ومن شاب قد عمد الى تضييق سترته عند خاصرته ومشى يتأود بها ويثنى أكثر مما تفعل النساء حتى تعاف ميوعته النساء ، وآخر قد صفف شعره فى تسريحة نسائية نابية ولم ينس أن يطلى وجهه بالقليل من (المكياج) . وغيره قد نسى آداب اللياقة إن لم يكن قد نسى اللياقة كلها فظهر (بالبيجامة) فى الطريق العام وربما كان ذلك فى أحد الشوارع الكبيرة كفؤاد الأول وسليمان باشا . وغير ذلك من المناظر المخجلة كثير .

وهؤلاء الشبان يكونون عادة من ضعاف النفوس الذين قد جنى عليهم غرام التقليد ، وخصوصا بما يرونه فى الأفلام السينمائية ، ناسين أن الحياة الحقيقية ليست كدنيا الخيال . وقد كان من مضار هذا التقليد أن أصبحنا لانكاد نجد من بين رجالنا من عرف كيف يختار زيا ملائما .

ولذا كان من الواجب علينا عند انتقاء ملابسنا التى هى أهم شىء فى إبراز شخصيتنا كما قلت ، أن نراعى أولا مايلائم كلا منا من حيث طابعه الخاص ومناسبته للظروف .

وكلما راعينا البساطة فى اختيار ملابسنا كلما كنا أقرب إلى الانسجام والكمال . ومادام الشعور بالجمال الكامل غير متوفر الا لمن كان رقيق الحس أنيق الذوق ، وجب علينا أن نربى تلك الملكات فى نفوسنا وننميها بالمران والممارسة .

وخير مايفيدنا فى ذلك ترقية الوسط الذى يحيطنا ، ثم الرياضة الخلوية والموسيقى .

وترقية الوسط تكون باختيار الصحبة التى نقضى بينها معظم أوقاتنا . فمثلا يجب علينا أن نجتنب رفقاء السوء من أدعياء الصداقة التى لا تصلح صحبتهم فى خلق جو يسمو بنا إلى تفهم معنى الجمال أو الحكم عليه ، ومن هؤلاء الجيرة والمعارف ، فنى اختيارنا لصحبة من المثقفين ثقافة خلقية قبل أن تكون علمية ، فائدة كبيرة لتهذيب ما أعوج من أخلاقنا وترقية نواحى تفكيرنا .

وللرياضة أثر جميل فى تربية الشعور وخصوصا السير الطويل فى الخلاء، والتمتع بالمناظر الطبيعية الفاتنة ، التى تدفعنا حتما إلى التعمق فى جمال صنع الخالق وتشعرنا بالعظمة الالهية التى يتضاءل العقل الإنسانى مهما سما عن ادراكها فيتلاشى صلفنا ، وترق أحاسيسنا ، وتصفو نفوسنا من ادرانها . . وبالمداومة تهذب أفكارنا . . وترق نظرتنا للأشياء، ونكون بذلك قد عملنا على تربيـة شعورنا . وصقل نفوسنا ، وعندئذ يمكننا بسهولة أن نميز بين القبح والجمال وبين النقص والكمال ، وأن نفرق بين ما يلائمنا ومالا يلائمنا .

أما الموسيقى فهى دون شك أعظم محفز لاستنهاض أرق الأحاسيس و بعث أسمى المشاعر وخصوصا ما كان منها إيحائيا يخاطب الروح و يسمو بالتفكير الى غاية نبيلة .

و يا حبذا لو عودنا أطفالنا منذ الصغر على حب هـذا النوع من الموسيقى الذى ينمى فى قلوبهم الصغيرة حب الجمال والميل الى الكمال ، كى يشبوا متشبعين بالشعور الكامل نحو الجمال الصحيح ، الجمال الحسى الشامل الذى يسمو بجميع حواسهم فيدفعهم الى قول كل جميل ، ويلهمهم بفعل كل جميل ، و يوحى اليهم بالحكم الصائب على كل جميـل ، حتى تسموا مداركهم الى المثل العليا ، التى تخلق منهم جيلا ساميا منزها .

زينب محمد حسين

البحترى يصف الربيع

أتاك الربيع الطلق يختـال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلمـا

وقد نبـه النيروز فى غسق الدجى ... أوائل وردكن بالأمس نوما

يفتحها برد النـدى فكأنه ... يبث حديثا كان قبل مكتما

فمن شجر رد الربيـع لباسه ... عليه كما نشرت وشيا منمنما

ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجىء بأنفاس الأحبـة نعما